الحياة الاجتماعيّة في الأندلس والمغرب كما تُصوّرها رحلات لسان الدين بن الخطيب

نوال عبدالرحمن الشوابكة*

ملخّص

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن مظاهر الحياة الاجتماعيّة في الأندلس والمغرب، من خلال "خطرة الطيف: رحلات في المغرب والأندلس"، للأديب لسان الدين بن الخطيب ومشاهداته، التي رصدت تنوّع المعالم الحضاريّة في مختلف الجوانب الحياتيّة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب التي زارها وعاداتها وتقاليدها، ولباسها وأخلاقها، وصورة المرأة في القرن الثامن الهجريّ. وقد قدّم ابن الخطيب تحليلًانفسيًّا لتلك الشعوب، ونمط معيشتهم وأثر المكان في طبائعهم جامعًا إلى صفة المؤرِّخ والأديب الناقد صفة عالم الاجتماع الذي ينقل أخبار الناس وما فيها من أبعاد تاريخيّة واقتصاديّة واجتماعيّة بدقة وأمانة؛ لتمثل – بذلك – رحلاته جزءًا مهمًّا من التاريخ الاجتماعيّ لشعوب البلدان التي زارها، وسيجلو البحث، أيضًا، الملامح الفنيّة والجماليّة للأسلوب الأدبيّ عند ابن الخطيب في رحلاته المومأ إليها.

الكلمات الدالة : خطرة الطّيف: رحلات في المغرب والأندلس، لسان الدين بن الخطيب، مظاهر الحياة الاجتماعيّة، صورة المرأة في القرن 8هـ، الملامح الفنيّة.

المقدمة

تعدّ الرحلات لونًا من ألوان التفاعل والتبادل الاجتماعيّ والفكريّ والثقافيّ، وقد وردت صور هذا التعايش مرّات كثيرة في كتب الرّحالة، وضمن سياقات عديدة؛ حيث ساعد تعايش الرّحّالة مع الأمم التي يقصدونها على إفادة تلك الأمم بعضها من بعض ، وكان ما قدّمة الرّحالة أشبه ما يكون بمزيج بين الرّحلة، والأثنوغرافيا، التي تسعى إلى وصف أسلوب الحياة والعيش، ومجموعة العادات والتقاليد والقيم والمؤثرات الشعبيّة لدى جماعة معينة في مكان معيّن في زمان معيّن[1].

وقد اتّجه الرّحالة إلى استخلاص أسلوب الحياة في البلدان التي قصدوها من خلال استقرائهم القيم والأفكار والجوانب الماديّة أو الروحيّة وتحليلهم إيّاها، التي تشكّل بدورها الأسلوب الحياتيّ للناس ومعالمهم التراثيّة، بحيث يتّخذ هذا التراث طابعًا شعبيًّا يمثل لغة مشتركة لدى الجميع، وبه ندرس المجتمعات بنواحيها الإنسانيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة والدينيّة والفولكلوريّة، فضلًا على معتقداتها الشعبيّة. (فهيم، 1978، ص74–83).

ثم قارن الرّحالة في رحلاتهم بين واقع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرىلاستجلاء أوجه الشبه والاختلاف بين مظاهر التلاقي والتفاعل في الجوانب الاجتماعيّة فجاءت الرحلات مصدرًا مهمًّا لوصف الثقافات الإنسانيّة. كما أنها تُعدّ، فضلًا على ما سلف، من أكثر المصادر أهمية من ناحية مصداقية نقل الخبر فهي الحالة التي يكون فيها الرّحالة معايشًا للأحداث، وشاهدًا عليها؛ فيوثّق أخبار الشعوب التي زارها، ويرسم أحوال البشر، ويشير إلى المحطات المهمّة في حياة الإنسان، وكلّ ما يرتبط به من مظاهر اجتماعيّة وما يتعلّق بها من العادات والتقاليد والأعراف التي تختلف من مجتمع إلى آخر، كما يوثّق أوصاف الأماكن التي وصلوا إليها، ممّا ينبئ بحراك المجتمع البشريّ في تنوّعه وخصبه على حدّ سواء.

وهكذا، لم يُغفل الرّحالة في حديثهم عن وصف الأماكن حركة الإنسان وما يضيفه من خصائص عامة على سلوكاته

* محاضر متفرغ، قسم اللغة العربيّة، كلية الآداب، الجامعة الأردنيّة.
تاريخ استلام البحث 2014/6/23 وتاريخ قبوله 2014/9/11.

© 2015 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

البشريّة واليوميّة، وقد جاء هذا الحديث في سياقين؛ أولهما: في طريقة التعامل بينهم، وبين أهل المكان، وثانيهما: في التعاملات التي يتداولها أهل المكان فيما بينهم. (الهروط، 2008، ص82).

ويظهر هنا، أنّ الرّحلات قد ركزت على العلاقة بين المكان والإنسان، وأولت الحياة الاجتماعيّة قدرًا كبيراً من العناية والاهتمام، فألقت الضوء على كلّ ما لفت انتباه الرّحالة من أحوال الإنسان، وكلّ ما يرتبط بمناسباته السعيدة أو الحزينة، وما يرافقها من العادات والتقاليد، وطريقة لباسه، والأطعمة والأشربة، وتصرفات القوم في مناسباتهم الاجتماعيّة المختلفة، كما رصدت تلك الرحلات صور العلاقات الاجتماعيّة ذوات الأثر الكبير في إعطاء صورة واضحة عن أهم أسس البناء الفكريّ والسلوكيّ للمجتمعات، وما بلغته الحياة من تقدّم وتطوّر في مختلف طبقات المجتمع.

وفي هذا السّياق، فقد أكد ابن خلدون تأثير البيئة الجغرافيّة في الحياة الاجتماعيّة؛ فهي تشكّل نوع المجتمع...، وتؤثّر في أخلاق الناس في طباعهم وبيوتهم وأزيائهم (ابن خلدون، 2007، ص100–109) وكان الأندلسيّ كغيره من الرّحالة العرب، دقيق الملاحظة ذا إحساس عالٍ بالأشياء والأمكنة التي زارها، وفي رحلاته جاء وصف المكان –غالباً– دالًا على أصحابه، وكاشفًا عن بيئة هذه الشخصيات ومظهرها العقليّ والنفسيّ والاجتماعيّ، وحاملًا في الوقت نفسه خصوصيّة قوميّة. (باشلار، 1980، ص27)

وكما شكّل المكان فضاء الرّحلة كان الزمان، إذ لا يمكن الفصل بينهما حيث يرتبطان مع بعضهما، ويأخذان أهميتهما من ارتباطهما بالإنسان، بحيث يتحوّل المكان من أوصافه الجغرافيّة، والتاريخيّة ليصبح جزءًا من التجربة الذاتيّة للرحّالة، فضلًا على ما يتضمنه من انعكاس ذلك في المجتمعات. (إبراهيم، 1986، ص96)

والمكان بما يحمله من خصائص "يسهم بشكل كبير في صنع الملامح العامة لتلك المجتمعات، وهذا ما نجده عند كثير من حاملي لواء الرّحلة الأندلسيّة الذين كانوا يحلّون في بلد ما، تجذبهم نوازع المكان، فينبرون له بالوصف...، فجاءت معطيات المكان الموصوف –أحيانًا– تحمل تصوّراتهم وأفكارهم المسبقة، وكذلك تنمّ عن معرفة الرّحالة بما يضفيه المكان على البشر من طباع وسلوكات، تساعد بشكل كبير على تحديد الهويّة الاجتماعيّة والثقافيّة لأصحاب المكان". (الهروط، 2008، ص82).

ويظهر هنا، أنَّ فعل الرّحلة لا ينفصل عن الزمان والمكان؛ فالزمان عامل من عوامل ضبط النص (طعان، 1994، ص147.137)؛ حيث تمثل الرّحلة في زمنها كلّ مظاهر الحياة المختلفة، فقد رصدت مشاهدات الرّحالة جوانب حياة الناس اليوميّة في المجتمعات التي قصدوها خلال مدّة زمنيّة محددة، امتدّ فيها سرد المشاهدات والوقائع الاجتماعيّة والأحداث السياسيّة لتملأ تلك الأحداث والمؤثرات المكانيّة والزَّمانيّة مراحل الرّحلة التي قطعها الرّحالة بين مكان الخروج وزمانه ومكان الرجوع وزمانه .

وقد جاء البعد الاجتماعيّ الذي قدّمة الرّحالة في كتبهم ضمن سياقات متعددة، من خلال تسجيلهم مشاهدتهم في البلدان التي زاروها، وحديثهم عن أمور كثيرة تتعلق بطبائع الناس وأطعمتهم وطرائق طهيها وتقديمها وتناولها، وسلوك الناس بعضهم مع بعض ومع الآخر من ناحية أخرى. (عارف، 1984، ص9، وفهيم، 1989، ص49)

ومن الرّحلات الأندلسيّة والمغربيّة التي رصدت العديد من الظواهر الاجتماعيّة، والمعالم الحضاريّة في مختلف البلاد التي قصدها الرّحالة ، رحلات لسان الدين بن الخطيب ومشاهداته؛ حيث قدّمت صورة واضحة للحياة الاجتماعيّة، ومادة غنيّة لتنوّع العادات والتقاليد في المجتمعات التي زارها، وعكست لنا المقدرة اللغويّة والتفوّق الأدبيّ لأدباء ذلك العصر.

لسان الدين بن الخطيب (713هـ–776هـ/ 1313م–1374م)[2]

محمد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلمانيّ، قرطبّي الأصل، يُكنّى أبا عبدالله، ويلقّب بلسان الدين، الطائر الصيت، وُلد في لوشة قرب غرناطة[3]، أسند إليه السلطان الغني بالله[4] الكتابة والوزارة وسمّاه ذا الوزارتين، نشأ في غرناطة، وتأدّب على شيوخها، مؤرخ وطبيب، وكاتب مترسل، وشاعر فحل، عندما تولّى الوزارة رافق السلطان أبا الحجاج يوسف الأول[5] في زيارته إلى مقاطعات غرناطة الشرقيّة عام 748هـ/1347م. وكان سفيراً لسلطان غرناطة إلى المغرب

الأقصى في عامي (749هـ، 755هـ/1348م–1354م)، وثمّ عاد إليه لاجئاً عندما نُفي إلى هناك مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف الغني بالله عام 760هـ/1358م، وخلال مدة نفيه، التي استمرّت ثلاث سنوات، تنقّل لسان الدين بن الخطيب في أنحاء البلاد المغربيّة وشاهد معالمها، وسجّل ما وقعت عليه عيناه وسمعته أذناه (ابن الخطيب، 2003، ص15) فقدّم بذلك مادة غنيّة يعود إليها الفضل في معرفة حضارة الغرب الإسلاميّ، امتازت فيها أوصافه لما شاهد وعاين بالدّقة في الملاحظة، والرّوح النشطة في المتابعة، والحيويّة المتدفّقة. (ابن الخطيب، 2003، ص)

رحلاته ومشاهداته

بدت مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في مواطن متفرقة من كتبه، التي حرص فيها على جعل القارئ رفيقًا ملازمًا له في تجواله وصاحبًا في تنقلاته، ومشاركًا له في مشاهداته التي جاءت في أربع رسائل، هي:

- خطرة الطّيف، ورحلة الشتاء والصيف.
- مفاخرات مالقة[6] وسلا[7].
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والدّيار.
- رحلته إلى جبل هنتاتة، التي دوّنها في كتابه"نفّاضة الجراب في علّالة الاغتراب". وقد حقّق هذه الرسائل ونشرها أحمد مختار العبادي عام 1958. (ابن الخطيب، 2003، ص12، 15)

وصف ابن الخطيب في أُولاها ، وهي رسالة مُسجَّعة، رحلة رسميّة رافق فيها سلطان غرناطة أبا الحجاج يوسف النصريّ في عام 748هـ/1347م؛ لتفقد مقاطعات مملكة غرناطة الشرقيّة، وقد دامت الرحلة نحو عشرين يومًا "قطع فيها قرابة مائتي كيلومتر، فهي على الحقيقة رحلة صغيرة في الزمان والمكان. (مؤنس، 1986، ص573).

أمّا الرسالة الثانية، فجاءت في المفاضلة بين مدينتي: مالقة الأندلسيّة، وسلا المغربيّة، ورغم حبّه لبلاد المغرب ولمدينة سلا بالذات التي لجأ إليها في أوقات محنته، فإنّ شعوره الوطنيّ جعله يتغاضى عن كلّ هذه الاعتبارات ويتحيّز إلى المدينة الغرناطيّة مالقة، فيجعلها المفضّلة إليه، وقد يرجع هذا الشعور إلى روح المنافسة التقليديّة القديمة التي كانت سائدة بين الأندلسيين والمغاربة، (ابن الخطيب، 2003، ص19) ولكن ابن الخطيب يرى أنّ المفاضلة لا تقع إلاّ "بين ما تشابه وتقارب وتشاكل وتناسب". (ابن الخطيب، 2003، ص57)، وعليه فإنّ فضل سلا يكون "على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها". (ابن الخطيب، 2003، ص65)

ويرى حسين مؤنس أنّ هذه الرسالة أكبر قيمة من الرسالة الأولى؛ لأنّها أغنى من الناحية الجغرافيّة؛ حيث اقتصرت على بلدتين من الأندلس والمغرب. (مؤنس، 1986، ص575) ولعلّ تبنّي مؤنس هذا الرأي يرجع إلى اهتمامه بالناحية الجغرافيّة.

وأمّا الرسالة الثالثة، التي كتبها ابن الخطيب عن مشاهداته، فهي مقامات، وصف فيها أهم مدن المغرب الأقصى، مع وصف لأربع وثلاثين مدينة من مملكة غرناطة. (ابن الخطيب، 2003، ص20) ويعدّها حسين مؤنس "مقامة من الطراز الأصيل". (1986، ص580)

وأمّا الرّحلة الأخيرة، فقد كانت في ربوع المغرب الأقصى في عهد دولة بني مرين، عندما عُزل سلطان غرناطة محمد الغني بالله في عام 760هـ/1358م، واضطر إلى الفرار إلى المغرب وصحبه وزيره ابن الخطيب وبعض أفراد حاشيته، وقد دوّن ابن الخطيب هذه الرّحلة في كتابه المعروف باسم (نفّاضة الجراب في علّالة الاغتراب). (ابن الخطيب، 2003، ص20–21)

وفي هذه الرّحلة يصف ابن الخطيب قبيلة هنتاتة التي كانت تسكن جبل هنتاتة في منطقة جبال أطلس، من حيث وصفُه طرائق معيشة شيوخها وكرمهم وأنواع المآكل والمشارب والهدايا التي قدّموها لهم. وهكذا كانت رسائل ابن الخطيب هذه مصدرًا ثرًّا أغنى الناحية الإثنوغرافيّة والأدبيّة، إضافة إلى النواحي الجغرافيّة والتاريخيّة والاقتصاديّة والحضاريّة.

مظاهر الحياة الاجتماعيّة في الأندلس والمغرب:

أولاً: الأعياد والاحتفالات والأزياء

تعدّ الأعياد والاحتفالات من أهم مظاهر الحياة الاجتماعيّة في الأندلس، وفيها كانت تتجلّى روابط المودة وروح الانسجام بين العناصر البشريّة المكوّنة للمجتمع الأندلسيّ.

ومن صور هذه الاحتفالات ما ذكره لسان الدين بن الخطيب في رحلته خطرة الطيف عن مشهد خروج ركب سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف الأول من العاصمة غرناطة تتقدّمه الألوية والبنود الحمراء شعارُ دولة بني الأحمر، يقول: "خرجنا وصفحة الأفق بالغيم مُنْتِقَبَة، وأدمُع السُّحب لوداعنا منُسَكِبَة ، نتبع من الراية الحمراء دليلًا هاديًا"، (ابن الخطيب، 2003، ص33)، ثم يصف ابن الخطيب كيف استقبل سكان مدينة آش[8] الركب السّلطانيّ بملابسهم البيضاء، وهو زي أهل الأندلس منذ أيام الأمويين، فيقول: "واستقبلتنا البلدة ـ حرسها الله ـ في تبريز سَلَبَ الأعياد احتفالها وغصبها حسنها، وجمالها، نادي بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة ، فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم".(ابن الخطيب، 2003، ص34)

ولا تنفصل صورة الحياة الاجتماعيّة في رحلات ابن الخطيب ومشاهداته عن المكان ودلالاته الجماليّة التي يُساق من أجلها، فجمال المكان وطيبه ينعكس على مَنْ يسكنه، ويظهر ذلك في مراسم الاستقبال والاحتفاء بالضيف؛ إذ يقول ابن الخطيب في مدينة بسطة[9]، وقد استقبلهم أهلها أحسن استقبال: "وكان ملقى الحران منابت الزعفران بسطة ـ حرسها الله ـ وما بسطة محلّ خصيب وبلدة لها من اسمها نصيب...، وتسابق إلى لقائنا الجمّ الغفير مثل الفرسان صفًّا ، وانتشر الرّجل جناحًا ملتفًّا، واختلط الوالدان بالولائد، والتمائم بالقلائد في حفل سلب النهى...". (ابن الخطيب، 2003، ص37).

وقد أمدّنا الرّحالة ابن الخطيب بسيل من النصوص على جانب كبير من الأهمية تكشف النقاب عن فئات المجتمع الأندلسيّ، من شيوخ وعلماء وفقهاء وأعيان؛ إذ يقول في وصف مدينة بُرْشانة[10] واستقبال أهلها لهم:"بلد أعيان وصدور، ومطلع نجوم وبدور، وقلعة سامية الجلال، مُختّمة بالكواكب، حللناها في التبريز الحفيل، والمشهد الجامع بين الذرة والفيل، حشر أهلها بين دان ونازح، ومثل حاميتها من نابل ورافحٍ، فكان ذلك المجتمع عيداً وموسمًا سعيدًا. (ابن الخطيب، 2003، ص41)

وفي استقبال أهل المرية[11] للموكب السّلطانيّ، يذكر ابن الخطيب أن جميع الناس خرجوا زرافات ووحدانا: "فلم يبقِ حجاب إلاّ رُفع ولا عذر إلا دفع، ولا فرد إلا شفع في يوم نادي بالجمهور إلى الموقف المشهور، وبرز أهلها حتى غصّ بهم سهلها وقد أخذهم الترتيب، ونظمهم المصف العجيب، تقدّمت مواكب الأشياخ الجلّة، والفقهاء التي لا تؤتي بحول الله من القلّة، وتعدّدت بمناكب البدور أشكال الأهلّة، في جموع تسدّ مهبّات الصبا" (ابن الخطيب، 2003، ص47)

كما خرج الناس في قتورية[12]، صفوفًا، فرسانًا وراجلين، صغارًا وكبارًا، ولم يتخلّف أحد منهم عن استقبال الموكب السلطانيّ " برز أهلها في العديد والعدّة، والاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدة، صفوفًا بتلك البقعة، خيلًا ورجلًا كشطرنج الرقعة، لم يتخلّف ولد عن والد...". (ابن الخطيب، 2003، ص41).

وقد كشف لسان الدين ابن الخطيب عن إعجابه الشديد بعلماء غرناطة ورجالها، فقال: "ترى الأعمال سامية، وأدواح الفضلاء نامية، وأفراد الرجال يضيق بهم رحب المجال". (ابن الخطيب، 2003، ص64).

أما الفئات التي شاركت في استقبال الركب السلطانيّة في مدينة آسفي، فيشير ابن الخطيب إلى جملة من أولي الدين والدنيا وأهل العلم والفضل والأدباء، والظرفاء وأهل الكتابة والخط، والفقهاء والطلبة والصوفية. (ابن الخطيب، 2003، ص128، 140).

ومن الدّلالات الدّينيّة في الرّحلة مشاركة النصارى في المراسيم والاحتفالات التي كانت تُقام لاستقبال الحكام والأمراء؛ إذ ساهموا في الترحيب بموكب السلطان أبي الحجاج يوسف، بأن نشروا فوقه مظلة كبيرة من الحرير لتحجب عنه أشعة الشمس ، ولعلّ في ذلك إشارة إلى أنّهم كانوا يتمتعون بكامل حقوقهم، وإلى ازدهار العلاقات التجاريّة بينهم وبين غرناطة، وأنّهم كانوا يشكّلون مصدر دخل عظيم للدولة الإسلاميّة لاشتغالهم بالتجارة والاستيراد والتصدير، يقول ابن الخطيب: "وتكاثر رجل الدبا صفوفًا كصفوف الشطرنج على أعناقهم قسي الفرنج، وقد نشروا البنود الشهيرة الألوان واستشعروا في يوم السلم شعار الحرب العوان، يتسابقون من الاحتفال إلى غاية... وامتاز خدّام الأساطيل المنصورة في أحسن الصورة، بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول. وتأنّق من تجّار الروم مَنْ استخلص العدل هواه، وتساوى سرّه ونجواه، في طرق من البرّ ابتدعوها، وأبواب من

الاحتفاء شرعوها، فرفعوا فوق الركاب المولويّ على عمد السّاج، مظلّة من الديباج...". (ابن الخطيب، 2003، ص47-48).

إن مثل هذه الإشارات التي أوردها لسان الدين ابن الخطيب، نتيجة طبيعة لتفاعل الثقافات المتنوعة وامتزاج العناصر التي تكوّن منها المجتمع الأندلسي من أعراض شتى.

ويستمر الرّحالة ابن الخطيب في وصف مظاهر الاحتفاء بالسلطان، وما نُظم له من مراسم استقبال تليق بموكبه فضلًا على مشاهد الترحيب به والسّلام عليه، وإعلان الولاء له، فيقول: "إلى غير ذلك من أروقة عقدوها، وكرامة أعدّوها، وطلعت في سماء البحر أهلّه الشّواني، كأنّها حواجب الغواني، حتى إذا هالة القبة استدارت، وبالقمر السعد من وجه السلطان، أيّده الله، أنارت، مثلوا فسلّموا، وطافوا بركن مقامه، واستلموا، وأجهروا بالتلبية... وركب السلطان، أيّده الله، ثالث يوم وروده إلى مشاهدة قلعتها الشّماء ـ يقصد مدينة المريّة ـ فقدح سكانها زناد البارق المتألق، وتلعب صبيانها على جناح الطائر المحلّق... في مجلس احتفى واحتفل وفي حلل الكمال رفل، وأخذت مجالسها الخاصة والكبراء، وأنشد الشعراء، فكان مقامًاجليلًا...". (ابن الخطيب، 2003، ص48 ـ 50)

ويصف ابن الخطيب استقبال مدينة وادي آش لسلطانها بعد أن عاد من رحلته التفقديّة لأحوال الثغور الشرقيّة لمملكة غرناطة، قائلاً: "وتنافس أهلها في العدّة والعديد، واتّخاذ شكك الحديد... تلاحقت وفود التّهاني، وسفرت وجوه الأماني... حتى إذا بلغنا قصور الملك وانتهينا إلى واسطة السلك، وقفنا مهنئين ومسلّمين...". (ابن الخطيب، 2003، ص56)

أمّا الأزياء، فقد حفلت رحلات ابن الخطيب ومشاهداته بالكثير من الإشارات إليها، فذكر تنوّعها واختلافها بين الطبقات الحاكمة والغنيّة، التي كانت تتفاخر بمظاهر اللباس ومراسيم الاستقبال الرسميّة. (ابن الخطيب، 2003، ص53) الأمر الذي يدل على ازدهار الأوضاع الاقتصاديّة، والاجتماعيّة في تلك العصور. ومن ذلك ما وصف به ابن الخطيب هيئة قاضي قتورية البلويّ الذي كان يرتدي أحسن الملابس عند مشاركته استقبال سلطان غرناطة "وأرمى من البياض طيلسانًا، وصبغ لحيته بالحناء والكتم ولاث عمامته واختتم". (ابن الخطيب، 2003، ص41)

وقد أبرزت مشاهدات ابن الخطيب، أيضًا، انعكاس جمال المكان في نفوس أهله، فالمعالم الحضاريّة، والموقع المتميّز لغرناطة نجم عنه اعتدال مزاج أهلها وتأنّقهم في ملبسهم، ومن ذاك الوصف قوله: "والوجوه الزهر والبشرات الرقاق، والزّي الذي فاق زيَّ الآفاق". (ابن الخطيب، 2003، ص87)

وتحتلّ مدينة أزمُّور[13] موقعًا خاصًا في ذاكرة ابن الخطيب لمستواها الحضاريّ، وتقدّمها في جوانب الحياة المختلفة فهي "عروس ربيع وخريف، وذو وضع شريف...". (ابن الخطيب، 2003، ص103) أمّا ساكن هذا البلد ف"رفيه، ولباسه يتّحد فيه، ومسكنه نبيه...". (ابن الخطيب، 2003، ص103)

ومن جانب آخر، فإنّ فقر المكان ينعكس على أهله أيضًا في جميع نواحي الحياة، فسلا "أحوال رقيقة، وثياب في غالب الأمر خليقة ، وزيّ مجلوب وحلي غير معروف ولا منسوب...". (ابن الخطيب، 2003، ص61)

وممّا يلحظ في هذه الرّحلة أنّ ابن الخطيب لم يقدّم وصفًا لملابس السكان ودلالاتها الاجتماعيّة فقط، بل قدّم وصفًا للفِراش الذي أُعدّ لاستقبالهم في جبل هنتاتة، فقال: "بديع النقش والصنعة، ظاهر الجدة، مصون عن البذْلَة، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع، ولحف الحرر ومساند الوشي... وَتشاهد من أجناس الفرش المرفوعة والمراتب المقدرة، والسُتر الديباجيّة المسدولة على الأرائك الممهّدة...". (ابن الخطيب، 2003، ص116، 120)

أمّا الهدايا، فيذكر ابن الخطيب أنّهم قد تلقّوا التّحف والهدايا "من المقرّبات الكاملة تختال في الحلية، والكسا الرفيعة طيّ الأوعية الرقيمة"((ابن الخطيب، 2003، ص212)

وفي هذا المجال يورد ابن الخطيب نادرة طريفة؛ إنّ ملك المغرب لمّا عجب من مئذنة المسجد الجامع لمدينة أغمات[14]. "استأذنوه في نقلها إلى بلده على سبيل الهدية، يجعلونها تحفة قدومه وطرفة وفادته". (ابن الخطيب، 2003، ص125)

وبصفة عامة، فقد كان لسان الدين بن الخطيب، في رحلاته ومشاهداته يسجل كثيرًا من جوانب الحياة العامة في المدن التي كان يمرّ بها، فكان يُعنى بالحديث عن طبيعة

المكان وسكّانه، ويشير إلى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعيّة المتعلّقة بالمناسبات والاحتفالات والأزياء.

ثانيًا: الأخلاق والعادات

اكتسبت مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ورحلاته في المدن الأندلسية والمغربيّة أهميّة خاصة؛ لتسليطها الضوء على جوانب مهمة من تاريخ تلك المدن، فوصفت حياتها الاجتماعيّة، وقدّمت تصوّرًا واضحًا عن مدى التنوّع والاختلاف في العادات والتقاليد المحليّة. وفي تلك الرّحلات نقل ابن الخطيب صورًا جليّة عن كلّ المناطق التي قصدها؛ ليؤكد أنّ الثقافة الإنسانيّة متنوّعة ومتعددة لجميع المناسبات والعادات والتقاليد، فعكس بذلك حقيقة التفاعل بين الإنسان والمجتمع.

فقد روى لسان الدين بن الخطيب كثيرًا من العادات والتقاليد، ووصف أخلاق أهل البلاد التي نزل فيها وطباعها، وأشار إلى بعض العادات الحسنة الدّالة على قرب الناس من الدين وتعاليمه في المجتمعات الإسلاميّة، من نحو الكرم، والفضل، والبشاشة، وحُسن اللقاء، والجنوح إلى الصّلاح، والإيثار، فـ "مالقة أرفع قدْرًا، وأكرم ناسًا"، (ابن الخطيب، 2003، ص57) وأهل المريّة، "ما شئت من أخلاق معسولة،... وحضارة تعبق طيبًا، ووجوه لا تعرف تقطيبًا، ولم تزل مع الظرف دار نُسّاك، وخلوة اعتكاف وإمساك...". (ابن الخطيب، 2003، ص80)

وأمّا أهل آسفي[15]، فـ "أولو خيْريّة، وجنوح إلى الصّلاح" (ابن الخطيب، 2003، ص140) و"الدماثة والجمال، والصّبر والاحتمال، والزهد والمال، والسّذاجة والحلال"، (ابن الخطيب، 2003، ص104) والمدينة بعد ذلك "قليلة الأحزان، صابرة على الاختزان، وافية المكيال والميزان". (ابن الخطيب، 2003، ص104)

وقال واصفًا سبتة[16]: الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان"، (ابن الخطيب، 2003، ص98) ووصف بعض أهل مدينة أزمُّور، قائلاً: "المثل البعيد في الإيثار على الخصاصة، ومخجل الضيف، وريحانة التلطّف". (ابن الخطيب، 2003، ص147)

وفيما يتعلق بطبائع النّاس وأخلاقهم الذميمة، فقد أبدى ابن الخطيب سخطه على بعض صفات أهل المدن التي قصدها؛ حيث أثارته بعض العادات والأخلاق البعيدة عن الدين، فنبذها وأنكرها، من نحو شراسة الخُلق، والإسراع إلى الشجار، وقسوة القلوب، والحسد والنميمة، وسوء معاملة الأسرى، والزهد في الصّلاة؛ فأخلاق أهل تازا[17] شرسة، (ابن الخطيب، 2003، ص110) وأهل أنتقيرة[18]، "أولو شرور وغرور، وسلاح مشهور، وقاهر ومقهور" (ابن الخطيب، 2003، ص91) وسكان قرطمة[19] "سيوف تشاجرهم مسلولة" (ابن الخطيب، 2003، ص92) لأقل الأمور أهمية، والتشاجر في مدينة بلّيش[20] "أنمى من الشجر"، (ابن الخطيب، 2003، ص76) وقلوب أهلها "أقسى من الحجر"(ابن الخطيب، 2003، ص77) ونفوسهم "بيّنة الحسد... وشأنها غيبة ونميمة". (ابن الخطيب، 2003، ص77) أمّا أهل غرناطة، فيصفهم ابن الخطيب "باستحلال الغيبة في الأسمار، واحتقار أولي الفضل والوقار". (ابن الخطيب، 2003، ص88)

كما يذكر ابن الخطيب ما للأشرار من تأثير في القرار والخيار، فمدينة فينانة[21] "شرارها لهم في الخيار تأثير" والبيرة[22] "كثيرة المشاجرة والشرور،...، وزهد أهلها في الصلاة شائع في الجمهور، وسوء مَلَكَةَ الأسرى من الذائع بها والمشهور" (ابن الخطيب، 2003، ص82). أمّا أهل الملك[23]، فإذا "قاموا إلى الصلاة، قاموا كسالى". (ابن الخطيب، 2003، ص108) وأهل أرجُذونة[24] "ذو بطر وأشر، وشيوخها تيوس في مسالخ البشر،... وخُلُقها حسد وغِلّ". (ابن الخطيب، 2003، ص91)

ومن العادات الذميمة، التي لاحظ ابن الخطيب انتشارها، وتنافيها مع طبيعة الدين وتعاليمه، شرب الخمر؛ فأهل برشانة "يُداوون بالسُّلافة، عِلل الجلافة، ويُؤثرون علل التخلّف على لذة الخلافة، فأصبح رَيْعُهم ظرفًا قد مُليء ظرفًا. فللمجون به بسوق، وللفسوق ألف سوق، تُشَمَّر به الأذيال عن سوق". (ابن الخطيب، 2003، ص83) كما يأخذ ابن الخطيب على أهل غرناطة "إهانة القبور، وسوء الجوار". (ابن الخطيب، 2003، ص88–89)

ومن الظواهر الاجتماعيّة السلبيّة، التي رصدها ابن الخطيب في غير موضع في رحلاته، تفشي الظلم والبطالة والحمق والغفلة، وتجنّب الغريب وعدم قبوله، وفقدان الأمان، كما سجّل

ابن الخطيب وجود ظاهرة البخل والغلاء وكساد المعائش.

أمّا الظلم والبطالة فنجدها في مشاهدات ابن الخطيب في مدينة أندرش[25]؛ فهي "مستباحة المحارم، أعرابها أولو استطالة، وأبناء مترفيها كثيرو البطالة، وساكنها ضعيف يشكو من قوي"، (ابن الخطيب، 2003، ص85) ومدينة أغمات "قبولها بالغريب شحيح" (ابن الخطيب، 2003، ص105)، وأهلها "يوصفون بنوك وذهول، بين شبان وكهول، وعدوّها تضيق لكثرته السهول، وأموالها لعدم المنعة في غير ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان" (ابن الخطيب، 2003، ص105)، وكذلك أهل مدينة الملك لا يرحبون بالغريب، وتتجهم الوجوهلهم .(ابن الخطيب، 2003، ص109)

من جانب آخر، فإن كان ابن الخطيب قد لاحظ مظاهر الكرم والاحتفاء بالضيوف في بعض المدن التي زارها، وسجّلها في رحلاته، فإنّه قد لاحظ أيضًا انتشار ظاهرة البخل في أكثر من مكان قصده، وفي صدد حديثه عن هذه الظاهرة، يورد مُلْحة طريفة عن أهل قتَّورية الذين أتوا يزفّون دجاجة قبل ذبحها إكرامًا لابن الخطيب، وأخذوا يتبارون في مدحها، وطلب النّوال بسببها، وقد وصف ابن الخطيب ذلك المشهد بأسلوب ساخر، قائلاً: "البشير منهم بقدومها يبتدر، يَزفّونها كالعروس فوق الرؤوس، وأدنوا مربطها من المضرب عند صلاة المغرب، وتشططوا في طلب النّوال... حتى إذا سُلّت لذكائها المُدى، وبلغ من عمرها المَدى، قلت: يا قوم، ظفرتم بقرّة العين، وابشروا باقتراب اللقاء، فقد ذبحت لكم غراب البين". (ابن الخطيب، 2003، ص42) أمّا أهل مدينة المُلك، فـ "يلقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته، ولا يسمح له ببقله ولا بزيته، فلا يطرق الضيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا مسمّاهم" (ابن الخطيب، 2003، ص109)

والبخل، أيضًا، يغلّ أيدي أهل قرطمة، حتى في أوقات الشدّة لا يجزون (ابن الخطيب، 2003، ص92)، وأهل أَزْمُور "قليل إحسانهم" (ابن الخطيب، 2003، ص103)، وسكان سبتة أهل بخل واقتصاد في النفقة (ابن الخطيب، 2003، ص99)، ومدينة شالة[26] "في أهلها خفّة، وميزانها لا تعتدل منه كفّة" (ابن الخطيب، 2003، ص102)، أمّا مدينة غرناطة، فقد عُرف عن أهلها "الشّح بالدرهم والدينار" (ابن الخطيب، 2003، ص89).

ولم يُغفل لسان الدين بن الخطيب، وهو يتحدث عن البلدان التي زارها وطبائع أهلها، وأسلوب حياتهم، وسلوك بعضهم مع بعض، أن يتحدث عن أجناس السكان ولغاتهم وأشكالهم، فمدينة فاس[27] "اجتمع بها ما أولده سام وحام، وعظم الالتئام والالتحام... وألسنتها باللغات المختلفة لاحنة" (ابن الخطيب، 2003، ص107)، وسكان أُصَيْلا[28] من البربر(ابن الخطيب،2003،ص100)، ولسان أهل أزمّور بربريّ (ابن الخطيب، 2003، ص103)، أمّا أهل سلجماسة[29] فـ "القرع برؤوس أهلها عابث، والعمش في جفونهم لابث". (ابن الخطيب، 2003، ص110)

يلحظ ممّا سبق أنّ رحلات لسان الدين بن الخطيب ومشاهداته كانت زاخرة بوصفه للأبعاد الاجتماعيّة والأخلاقية والاقتصادية للبلدان التي قصدها، وقد عكس هذا الوصف الإيجابيّ أو السلبيّ تلك الأبعاد بما حملته من دلالات اجتماعيّة واقتصاديّة كثيرة؛ وبذا عُدّت رحلات ابن الخطيب ومشاهداته مصدرًا ثرًّا، له قيمة كبيرة من النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة والحضاريّة.

ثالثًا: الأطعمة والأشربة

سجّل الرّحالة لسان الدين بن الخطيب في رحلاته ومشاهداته، كثيراً من جوانب الحياة العامة في المدن والقرى، التي كان يمرّ بها في رحلاته، وكان يشير إلى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعيّة المتعلقة بالعادات والتقاليد المتبعة في الأطعمة والأشربة، فقد ركّز في وصفه على بعض أحوال السكان وظروف معيشتهم، وكان لوصفه هذا قيمة كبيرة من الناحيتين الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

ولعلّ من أهم الموضوعات التي وصفها ابن الخطيب في رحلاتهمظاهر الكرم الذي لقيه، وأنواع الأطعمة والأشربة التي كانت تقدّم له في البلاد التي زارها.

إنّ الطعام يرتبط بالبيئة والاقتصاد، وربّما بمظاهر الحياة الإنسانيّة الماديّة والفكريّة جميعها، كما أنّ طهيه، وآداب تقديمه، وتناوله، ما هي إّلا مظاهر سلوكيّة فريدة اختصّ بها الإنسان وميّزته عن الحيوان.

وقد سلّط ابن الخطيب الضوء على أنواع الأطعمة السّلطانيّة، وطرائق تقديمها وتناولها، التي تختلف عن العامة

في النوع وطريقة التقديم، نحو ما ذكره في وصف أنواع الطعام والشراب التي ملأت موائد أهل جبل هنتاتة؛ ترحيبًا بقدومهم؛ حيث يقول: "وشرك في الطعام نبهاء الدولة وعليّة الخاصة" (ابن الخطيب، 2003، ص115)، "ولم يكد يقرّ القرار، ولا تنزع الخفاف، حتى غمر من الطعام البحر، وطما الموج، ووقع البهْت، وأُمّل الطَّحْو، ما بين قصاع الشيزي أفعمها التُّرُد، وهيل بها السّمن، وتراكبت عليها لسمان الحُملان الأعجاز"(ابن الخطيب، 2003، ص116، 117) ثم يصف ابن الخطيب الآنية التي قُدّم فيها الطعام وأصناف الأطعمة المقدّمة لهم، فيقول: "غاصّة من الآنية بالمُذْهَب والمُحْكم، مُهْدِية كلّ مختلف الشكل، لذيذ الطعم، مُهان فيه عزيز التابل، محترم عنده سيدة الأحامرة الثلاثة، إلى السّمك الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيّار، ثم تتلوها صحون نحاسيّة، تشتمل على الطعام، خاص من الطير والكبّاب واللقالق". (ابن الخطيب، 2003، 117)

وتناول الرّحالة ابن الخطيب في حديثه بعض العادات المتّبعة عقب الانتهاء من تناول الطعام، فذكر أنّ أهل جبل هنتاتة يقدّمون أصناف الحلواء والفاكهة، واصفًا الخُدّام وحركتهم وعنايتهم بآداب الضيافة؛ حيث يقول: "ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مُسْتبطَن للباب البُرّ، ومعالج بالقَلْوُ، وأطباق مُدَّخر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخلق، المشتملة على مُجاج الشهد. وقد قام السّماط من خدّام وأساودة أخذتهم الآداب وهذّبتهم الدّربة، فخفّت منهم الحركة، وسكنت الأصوات، وقد اعتمّ من الآنية النحاسيّة للوضوء والوقود كلّ ثمين القيمة، فاضل أجناسه في الطيب والأحكام والفخامة".(ابن الخطيب، 2003، ص117)

وما أن يتحرك الموكب السّلطانيّ من جبل هنتاتة، إلى محلّ النزول حتى يستقبلهم الأشراف ويدعونهم إلى المكوث عندهم وإكرامهم، لتنهال عليهم أنواع الأطعمة المختلفة، يقول ابن الخطيب: "يغمرنا بكلّ دار منها من الأطعمة ما يحار فيه الفكر، ولا تنال منه إلاّ العين" (ابن الخطيب، 2003، ص121)، وهم بعد ذلك يعقّدون مجالس السّمر على ضوء الشموع احتفاء بالموكب السّلطانيّ، ويصف ذلك ابن الخطيب بقوله: "وكان السّمر والمجالسة في كنف لألاء الشموع الضّحاكة فوق المنصّات النحاسيّة، والأنوار اللاطونيّة". (ابن الخطيب، 2003، ص117)

وقد أشار لسان الدين بن الخطيب إلى بعض ما اشتهرت به البلدان التي زارها في مختلف أنواع الأطعمة والأشربة، فأزمّور بلد "يخزن الأقوات، باطنه الخير، وإدامة اللحم والطير". (ابن الخطيب، 2003، ص103) ومدينة أُصَيْلا "رافعة في الخصب اللواء الخافق، العصير الأثير، والحوت الكثير".(ابن الخطيب، 2003، ص100)

أمّا أهل جبل الشوار[30] فـ "الوَدَك إليها مجلوب" (ابن الخطيب، 2003، ص78)، ومدينة باديس[31]"حيث البُرّ والحوت... والفاكهة الطيبة والإدام". (ابن الخطيب، 2003، ص97)

أمّا الأشربة، فيبدو أنّ اللبن والعسل مادة غذائيّة مهمّة (ابن الخطيب، 2003، ص100)، في معظم البلدان التي قصدها ابن الخطيب؛ إذ اشتهرت مدينة أُصَيْلا بـ "اللبن الغزير"(ابن الخطيب، 2003، ص82)، ومدينة قنتورية "يجود بها الجبن والعسل" (ابن الخطيب، 2003، ص82) وكذلك أورية[32] "بلدة الجبن والعسل "(ابن الخطيب، 2003، ص83)، أمّابَلّيش فـ "عسله إذا اصطفّت العسول إمام". (ابن الخطيب، 2003، ص83).

يُلحظ ممّا سبق أنّ عين الرحالة ابن الخطيب اللاقطة للكثير من صور الحياة المختلفة قد زوّدتنا بالعديد من المعلومات عن المدن التي زارها، فعكست تلك الصور أبعاد الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة من بذخ وترف وفقر وقحط، وغير ذلك ممّا يسهم في تكوين البناء الاجتماعيّ، وقراءة ذلك الواقع، وبيان دلالاته الاجتماعيّة ورموزه، واستجلاء أثره في حضارة الأمم.

رابعًا: صورة المرأة

كشفت رحلات لسان الدين بن الخطيب ومشاهداته عن حضور العنصر النسائيّ في بلاد الأندلس والمغرب في القرن الثامن الهجري؛ إذ أمدّنا الرّحالة بنصوص على جانب كبير من الأهمية تكشف النقاب عن الوضعيّة الاجتماعيّة للمرأة الأندلسيّة والمغربيّة.

وقد وجد ابن الخطيب نفسه وجهًا لوجه أمام المرأة، فأظهر جرأتها في الإفصاح عن نفسها وعن رغباتها، ولعلّ ذلك راجع

إلى طبيعة المجتمع الأندلسيّ والمغربيّ من جهة، وإلى أثر البيئة في تكوين الشخصيّة وتوجّهها من جهة ثانية، وإلى الحريّة التي ظفرت بها المرأة الأندلسيّة والمغربيّة "بتأثير الجوار بالبلاد المسيحيّة المحيطة بهذه المملكة الصغيرة من كلّ جانب من جهة ثالثة . (ابن الخطيب، 2003، ص18)

ومن مظاهر تحرّر المرأة في الأندلس والمغرب، خروج النساء في جماعات كثيرة للمشاركة في توديع مواكب بعض السلاطين وفي استقبالهم، واختلاطهنّ بالرجال، فقد وصف ابن الخطيب خروج النساء في جماعات واختلاطهنّ بالرجال في استقبال سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف الأول، وذلك بعد عودته من رحلة تفقديّة لأحوال الثغور الشرقيّة لمملكة غرناطة سنة 748هـ/1347م، ومن قوله في وصف ذلك المشهد: "واختلط النساء بالرجال، والتفّ أرباب الحجا بربّات الحجال، فلم نفرّق بين السّلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود".(ابن الخطيب، 2003، ص53)

ومن جانب آخر، فإنّ المرأة الأندلسيّة والمغربيّة، وهي تشارك في مظاهر الاستقبال والتوديع، تولي زينتها وأناقتها وجمالها عناية فائقة، يقول ابن الخطيب: "وراقتنا بحسب ذلك المنظر سوار مصفوفة... وعذاري كشفت حللها الخضر عن السوق، كأنّها شمّرت الأذيال لتعبر الوادي، على عادة نساء البوادي".(ابن الخطيب، 2003، ص39)

ويصف كذلك مشاركة نساء وادي المنصورة[33] في مشهد استقبالهم والترحيب بهم، كما أشار إلى جمالهنّ، وأثر هذا الجمال في نفوس الرجال؛ حيث قال: "والنساء إلى مشاهدة التبزير قد خفّت، وبشاطئ الوادي قد صفّت، قد أبرزن الثنايا، وسددن سهام المنايا، عن حواجب كالحنايا، يشغلن الفتى عن شؤونه" (ابن الخطيب، 2003، ص40)، ونساء رُندة[34] "يسفرن عن الخد المعشوق، وينعشن قلب المشوق، بالطيب المنشوق" (ابن الخطيب، 2003، ص92)، أمّا برشانة فـ "على وجوه نسوانها طلاقة" (ابن الخطيب، 2003، ص83)، وكلّ ذلك يشير إلى مدى رقيّ المجتمع الأندلسيّ والمغربيّ، ورهافة حسّ أفراده، وتطوره في سلم الحضارة ممّا جعله مجتمعاً منفرداً عن غيره من المجتمعات في بلاد المشرق.

ويشير لسان الدين بن الخطيب إلى مظاهر احترام المرأة وحُسن معاملتها في أثناء الازدحام في احتفالات الاستقبال أو التوديع، من نحو ما وصف به نساء المرية وقد تزاحمن ليشاركن الرجال في استقبال الموكب السّلطانيّ، إذ يقول: "وتزاحم من النساء الأفواج، كما تتدافع الأمواج، فرفَع الجناح، وخفض الجناح، ومهّد لهنّ سبيل العطف، وشملهنّ كنف الإشفاق واللطف" (ابن الخطيب، 2003، ص48).

إنّ مثل هذا الحضور القويّ للمرأة الأندلسيّة والمغربيّة في مختلف ضروب الحياة يؤكده أيضًا ابن حزم[35] في طوق الحمامة، فقد أشار إلى أنّ النساء يتابعن مشهد الشارع من أماكن خاصة لمشاهدة الرائحين والغاديين. (ابن حزم، 2008، ص123، 250)

لقد استطاعت رحلات لسان الدين بن الخطيب ومشاهداته الكشف عن الكثير من مظاهر الحريّة التي تمتعت بها المرأة الأندلسيّة والمغربيّة، والدور الذي حظيت به في الحياة إلى جانب الرجال تشاركهم أفراحهم وأحزانهم ومناسبتهم المختلفة، كما أنّ شيوع مثل هذه الظواهر في سلوك المرأة الأندلسيّة والمغربيّة مردّه إلى التفاعل الاجتماعيّ الذي شهده المجتمع آنذاك، لتكن بذلك من المعالم الحضاريّة في المجتمع الأندلسيّ والمغربيّ، إلى جانب الشواهد الأخرى "كالحلي والطيب، والحلل الديباجيّة والجلابيب، والبساتين ذات المرأى العجيب، والقصور المُبتناة بسفوح الجبال،... والملابس المختالة في أفنان الجمال، والأعراس الدّالة على سعة الأحوال...".(ابن الخطيب، 2003، ص61)

ويلحظ هنا، أنّ البعد التصويريّ عند ابن الخطيب قد شكّل مجالًا فسيحًا للتعبير عن رأيه في المرأة الأندلسيّة والمغربية، اتّصف بالحيويّة والمرونة؛ لانعكاس الأثر الذي انبثق منه الحسّ الوصفيّ لما انطبع في وجدانه من آثار توقّدت نتيجة مشهد أو سلوك بعث في نفسه نوازع الوصف والتصوير، لتشكل الصورة بعد ذلك منحى مهمًا في تحقيق التأثّر الانفعاليّ في المتلقي، وتصبح النواة التي من خلالها تُبنى جسور التواصل بين الرّحالة والمتلقي؛ لما تضفيه على أجواء النّص من عوامل التشويق المنبعثة من دلالات الصورة ذات الإطار الفنيّ الجماليّ.

أسلوب ابن الخطيب: ملامح لغويّة وفنيّة

اعتبر بعض الدّارسين لسان الدّين ابن الخطيب، "قطب

الشّعر والنثر في عصره، ومحور الحركة الفكريّة الأندلسيّة"(عنان، 1988، ص 481)، وأنّه "كان مستجيبًا للذوق السّائد في ذلك العصر، ومواكبًا لأساليبالنثر المشهورة، وفي مقدمتها طريقة القاضي الفاضل"[36]. (الشكعة، 1971، ص 572).

ويبدو واضحًا تأثّر ابن الخطيب بأسلوب الكتابة المشرقيّة، فقد امتاز أسلوبه بكثرة الإطناب؛ حيث تطول جمله، فتتكرر المعاني. ويذكر المقّري وصف بعض علماء المشرق لأسلوب ابن الخطيب، بأنّه "كاتب مترسل بليغ، لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يخلو من عثار، والإطناب الذي يُفضي إلى الاجتناب، والإسهاب". (المقّري، 1997، 6: 26) ويعلّق المقّري على ذلك، فيقول "فإنّ لسان الدين وإن أطنب وأسهب، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب...". (المقّري،1997، 6: 27) وقد أثنى المقّري ،أيضًا، على نثر ابن الخطيب فقال: "أمّا نثره فهو البحر الزّخّار، بل الدرّ الذي به الافتخار".(1997، 6، 164).

ووصفه ابن خلدون، بقوله "كان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، يساجل مداه، ولا يهتدي فيها بمثل هداه". (ابن خلدون، 1956، 7: 959)

إنّ رحلات ابن الخطيب اتصفت بكثرة الفنون البلاغيّة في نصوصها ؛ فجاءت عبارة عن قِطع أدبيّة فنيّة جميلة، دبّجها يراع هذا الكاتب البليغ ؛ لترقى إلى مستوى الوصف الأدبيّ الجميل بأسلوب خاص تمتّع به ابن الخطيب الذي بدا واضحًا شغفه إلى حدّ بعيد بتلك الفنون البلاغيّة التي سار عليها مَنْ عاصره ، فتضمنت نصوصه كثيرًا من الفنون البلاغيّة، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر، ما يأتي:

- الطباق

"ويعني الجمع بين لفظتين مقابلتين في المعنى" (الهاشميّ، 1960، ص 366)

وقد ورد منه في نصوص رحلات ابن الخطيب، قوله "تبكي السّحاب، فيضحك نورُها" (ابن الخطيب، 2003، ص35)، وقوله "وتساوى سرّه ونجواه"، (ابن الخطيب، خطرة الطيف، 2003، ص 48)، وقوله "وقرد الجبال، وظبي الكناس"، (ابن الخطيب، 2003، ص 57)

- الجنـاس

و"هو تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى" (الهاشميّ، 1960، ص 396) ومنه، قول ابن الخطيب "والتفّ أرباب الحجا بربّات الحجال، فلم نفرّق بين السّلاح والعيون الملاح، ولا بين حُمر البنود وحُمر الخدود..." (ابن الخطيب، 2003، ص 53)، وقوله "فرأينا الحور تحت سماط الحور، والنور فوق بساط النور". (ابن الخطيب، 2003، ص52)

فقد جانس بين "الحجا والحجال"، و"السلاح والملاح"، و"البنود والخدود"، وهو من الجناس الناقص. ومن الجناس التام، قوله "الحور والحور، والنور والنور".

- الاقتباس والتّضمين

ويقصد بالاقتباس "أن يُضمّن المتكلّم منثوره أو منظومه شيئًا من القرآن الكريم، أو الحديث على وجه لا يشعر بأنّه منهما". (الهاشميّ، 1960، ص 414)

وورد منه في نصوص رحلات ابن الخطيب ، قوله: "ونثق بوعد الله سبحانه في قوله ولا يقطعون واديًا" (ابن الخطيب، 2003، ص 33)، وهو يقتبس من قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. (سورة التوبة: الآية 121)

وقوله: "ولمّا طال مرام العروج إلى جو السّماء ذات البروج" (ابن الخطيب، 2003، ص 45) مقتبس من الآية الكريمة ﴿والسماء ذات البروج﴾ (سورة البروج: الآية1)

كذلك قوله: "والتّوكّؤ على النمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة" (ابن الخطيب، 2003، ص 119)، وهو متأثر هنا بقوله تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (سورة الغاشية: الآية16،15)

أمّا التّضمين فيُقصد به "أن يُضمّن الشاعر كلامه شيئًا من مشهور الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا لدى نقّاد الشّعر وذوي اللسن". (الهاشميّ، 1960، ص 146).

وقد استخدم ابن الخطيب التضمين بكثرة ، حيث اختلط النثر بالشعر؛ فقلّما نجد صفحة من صفحات رحلاته تخلو من شعرٍ له أو لغيره يتمثّله أو يستشهد به عند وصف مكان أو التعبير عن حال، الأمر الذي يدلّ على ثقافته الواسعة في التراث العربيّ،

وإظهار مهارته وقدرته في النظم والنثر، ولا عجب في ذلك فهو أديب وشاعر. يقول الشكعة: "إنّ كبار كتّاب الأندلس وأدبائها هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين" (1971، ص 569)، ونرى أنّه لا حاجة بنا إلى ذكر الأمثلة على ذلك.

- السجع

ممّا يلحظ في رحلات ابن الخطيب ومشاهداته أنّ نصوصها كلّها مسجوعة، ونرى هنا، أيضًا، أنّ لا حاجة إلى ذكر أمثلة من تلك النصوص؛ لأنّها جميعها تقوم على النثر المسجوع.

- التّكـرار

كثيرًا ما وصف لسان الدين أهل بعض المدن بالأمانة والوفاء والكرم كما وصف غيرهم بالحسد والنميمة، وقسوة القلوب، والتشاجر، وكرر هذه الألفاظ في تعليقه على طبائع النّاس وأخلاقهم الحسنة أو الذميمة في البلدان التي زارها.

من جانب آخر، كان ابن الخطيب يكرّر الجمل الدعائيّة حينما يذكر بعض الأسماء للشخصيات، داعيًا لها بالرحمة. وحينما يذكر بعض الأماكن والبلدان داعيًا أن يحرسها الله، من ذلك قوله: "وركب السلطان –أيّده الله–" (ابن الخطيب، 2003، ص 49)، وقوله: "لم يكن همّي –أبقاك الله– ". (ابن الخطيب، 2003، ص 115).

ومن دعائه للمدن "واستقبلنا مدينة وادي آش –حرسها الله–"، (ابن الخطيب، 2003، ص 53)، وقوله: "مالقة – حرسها الله–" (ابن الخطيب، 2003، ص 59)، وقوله: "واستقبلنا المريّة –عصمها الله–". (ابن الخطيب، 2003، ص47)

ولعلّ الإكثار من استعمال الجمل المعترضة وبخاصة الدعائية منها، يعود إلى أنّها تعتبر من الأصول التي يعتمدها التعبير الأدبيّ في العصور كافة، والمعبّرة عن التّعظيم لله تعالى والدعاء للسامعين بالتوفيق والرحمة" (الكلاعي، 1966، ص72–80)

- التشبيه

والأمثلةعلى ذلك كثيرة منها، قوله: "فلمّا تبسّم زنجي الليل عن ثغر الفجر، وشبّ وليد الصّبح عن عقد الحجر.."، (ابن الخطيب، 2003، ص 54)، وقوله: "فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب، وتدافع البدور بالصدور، بيضاء كأسراب الحمائم... ملتفعات بروضهنّ تلفّع الأزهار بالكمائم...". (ابن الخطيب، 2003، ص 34).

ومن تشبيهاته التي حذف فيها أداة التشبيه، قوله: "لو كان الجود ثمرًا لكنت لُبابه، أو عمرًا لكنت شبابه أو منزلًا لكنت بابه". (ابن الخطيب، 2003، ص 93).

وبصفة عامة، تظهر براعة ابن الخطيب في أسلوبه وطريقة اختياره للألفاظ بما فيها من صيغ بلاغيّة، وأسلوب أخّاذ سهل، ولغة واضحة تكثر فيها التشبيهات والصور المجازيّة والصّنعة الفنيّة. (مؤنس، 1986، ص591) وإن كان يميل إلى النقد اللّاذع –أحيانًا–، ويجمع بين السلاسة والبساطة، وبين التّعلّق بالتّكلّف واللفظ الجزل، والزخرفة اللفظيّة، التي هي على الأغلب خالية من روح التّكلّف الذي يجيء، أحيانًا، على الأسلوب والمعنى. وهو في نهاية المطاف يسمو إلى مستوى الجدّ وقمة الازدهار الأدبيّ والإنتاج الفكريّ.

الخاتمــة

وبعد، فقد نقل لنا لسان الدين بن الخطيب شهادة صادقة عن واقع عصره ومحيطه بصورة حركيّة واضحة حيث مخالطة الأقوام، وكشف مواطن الاتفاق والاختلاف بين النّاس في شؤونهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، حتى إنّه لم تسلم من نقده بعض المدن التي طالما امتدحها وأشاد بحسنها من نحو مدينة غرناطة وغيرها، ولكنّه آمن أنّ أيّ أمن لا يعرى من مخافة، وأنّ لكلّ شيء آفة، ولذلك لا يمرّ ابن الخطيب بمدينة أندلسيّة أو مغربيّة إلاّ ويشير إلى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعيّة المتعلقة بالأخلاق والعادات والتقاليد في اللباس والأطعمة والمناسبات الاجتماعيّة والصورة التي كانت عليها المرأة الأندلسيّة والمغربية، إلى غير ذلك في رحلاته الرسميّة والشخصيّة، بحيث تجمّعت لديه كثير من المعطيات التي استقاها من مشاهداته ورحلاته، وقد وقف ابن الخطيب وهو يسجل تلك المظاهر عند الجوانب الإيجابيّة لمشاهداته والعيوب والمثالب التي تميّز كلّ مدينة زارها، ممّا لا نجده في

الكتب المتخصصة المفردة لهذه الموضوعات.

وكلّ ذلك صاغه ابن الخطيب في قالب لغويّ أدبيّ، دالًا بذلك على تمكّنه من اللغة والأدب والصياغة الفصيحة الرصينة، التي تكثر فيها الاستعارات والتشبيهات والمحسنات البديعيّة، وعلى بيانه واقتداره في التّصرف في وجوه الكلام، وملكة التعبير التي فتقت لسانه وأطلقت قلمه؛ ليخلّف لنا تراثًا زاخرًا يشمل جميل المنظوم، ورائع المنثور.

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع ابن الخطيب أن يرصد تنوّع المعالم الحضاريّة للبلدان التي زارها، وأن يكشف عن كثير من أحوال الشعوب وعاداتها؛ لتحمل لنا هذه الصورة في ثناياها كثيرًا من دلالات التفاعل والتلاقي الحضاريّ، وبذلك تشكل مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ورحلاته مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ والحضارة للمؤرخ والأديب والجغرافيّ، وعلماء الاجتماع والاقتصاد وعلماء الطبيعة.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

إبراهيم، نبيلة، (1986)، قصّ الحداثة، **فصول**، المجلد (6)، العدد (4)، ص95-99.

باشلار، جاستون، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، بغداد، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك، (ت 578هـ/1182م)، (1994)، **الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، ط1،تحقيق عزت العطّار الحسينيّ، القاهرة، دار مكتبة الخانجي.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد اللواتي الطنجي، (ت779هـ/1377م)، (2004م)، **تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، اعتنى به وراجعه، درويش الجويدي، صيدا، بيروت، المكتبة العصريّة.

حتاملة، محمد عبده، (1999)، **موسوعة الدّيار الأندلسيّة**، ط1، ج1، ج2، الأردن، عمان، المكتبة الوطنية.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بدر سعيد، (ت456هـ/1063م)، (1986)، **طوق الحمامة في الألفة والألاّف**، تحقيق صلاح الدين القاسميّ، ط5، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامة.

الحميريّ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، (ت900هـ/1494م)، (1975)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار العلم للطباعة.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت779هـ/1377م)، (2003م)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، شرحه وضبطه، يوسف علي طويل، لبنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، وتحقيق محمد عبد الله عنان، (1974م) القاهرة، مكتبة الخانجي.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت776هـ/1377م)، (1956م)، **تاريخ إسبانيا الإسلامية، أعمال الأعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، ط2، تحقيق إ.ليفيبروفنسال، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت776هـ/1377م)، (2003م) **خطرة الطّيف: رحلات في المغرب والأندلس**، حّققها وقدّم لها، أحمد مختار العبادي، ط1، بيروت، المؤسسة العربّية للدراسات.

ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، (ت776هـ/1377م)، (1966م)، **كناسة الدكان بعد انتقال السّكان**، تحقيق محمد كمال شبانه، وحسن محمود، القاهرة، دار الكاتب العربيّ.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرميّ (ت808هـ/1405م)، (1956م)، (1966م)، **تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، ط4، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرميّ، (808هـ/1405م)، (2007م)، **مقدمة ابن خلدون**، ط6، اعتنى به هيثم جمعة هلال، لبنان، بيروت، مؤسسة المعارف.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرميّ، (ت808هـ/1405م)، (2003م)، **التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً**، ط1، علّق عليها محمد بن تاويت الطنجي، وحرّرها وقدّم لها، نوري الجرّاح، أبو ظبي، دار السويدي للنشر، الأردن، دار الفارس.

ابن سعيد المغربيّ، أبو الحسن علي بن موسى، (ت 685هـ/1286م)، (1953)، **المغرب في حلى المغرب**، القسم الخاص بالأندلس، ط3، تحقيق شوقي ضيف، مصر، القاهرة، دار المعارف.

الشكعة، مصطفى، (1971)، **الأدب الأندلسيّ موضوعاته وفنونه**، بيروت، دار النهضة العربيّة.

طعان، صبحي، (1994م)، زمن النّص، **مجلة المعرفة**، السنة (33)، العدد (370).

عارف، مجيد حميد، (1984)، **الأثنوغرافيا والأقاليم الحضارية**، بغداد، وزارة التعليم العالي.

عارف مجيد حميد، (1989)، **أثنوغرافيا شعوب العالم**، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

عنان، محمد عبد الله، (1968)، **لسان الدين بن الخطيب، حياته، وتراثه الفكري**، القاهرة، مكتبة الخانجي.

فهيم، حسين، (1989م)، **أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور أثنوغرافي**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

فهيم، حسين، (1987م)، التراث الشعبيّ في أدب الرحلات، **مجلة المأثورات الشعبيّة**، العدد (5)، السنة الثانية.

الكلاعيّ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعيّ الإشبيليّ الأندلسيّ من أعلام القرن السادس، (1966)، **أحكام صنعة الكلام**، تحقيق محمد رضوان الدّاية، بيروت، دار الثقافة.

المقّري، أحمد بن محمد التلمسانيّ، (ت1041هـ/1631م)، (1987م) **أزهار الرياض في أخبار عياض**، 5ج، الرباط، صندوق إحياء التراث الإسلاميّ.

المقّري، أحمد بن محمد التلمسانيّ، (ت1041هـ/1631م)، (1997م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 8ج، تحقيق إحسان، عباس، ط جديدة، بيروت، دار صادر.

مؤنس، حسين، (1986م)، **تاريخ الجغرافيّة والجغرافيين في الأندلس**، ط2، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والفنون والثقافة والعلوم.

النويريّ، شهاب الدّين أحمد بن عبدالوهاب، (ت733هـ/1332م)، (1983)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق حسين نصّار، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.

الهاشميّ، السيد أحمد، (1960)، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط12، القاهرة، المكتبة التجاريّة الكبرى.

الهروط، بلال سالم، (2008م)، **صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسيّة**، رسالة دكتوراه غير منشورة، الأردن، جامعة مؤتة.

ياقوت الحمويّ، شهاب الدين بن عبدالله، (ت626هـ/1228م)، (1977)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر.

Social Life in Andalusia and Morocco as Depicted in Lesan-Din Ibnal - Khatib Journey

Nawal Abdul Rahman Shawabkeh*

ABSTRACT

This research aims at revealing aspects of social life in Andalusia and Morocco, as appears in ibn al-Khatib's *Khaṭratal-ṭayf:riḥlātfī al-Maghrib wa al-Andalus*, and in his other observations. These observations show the diversity of cultural landmarks in various aspects of life and reflect a clear picture of the conditions of the people whom he visited, along with their customs and traditions. Additionally, they reflect the image of women in the eighth century A.H. Ibn al-Khatib analyzed those people psychologically, their life-styles and the impact of place on their nature. By doing this, Ibn al-Khatib was not only a historian, but also a sociologist, who could demonstrate the individual's historical, economic and social features precisely and honestly. Accordingly, his journeys and observations are an important part of the social history of the people in Morocco and Andalusia. Furthermore, this research explores artistic features of ibn al-Khatib's journeys mentioned above.

Keywords: *Khaṭratal-ṭayf:riḥlāt*, journeys in Morocco and Andalusia, lesan al-Din ibn al-Khatib, features of social life, the image of women in the 8th century AH, artistic features.

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, The University of Jordan, Jordan.

Received on 23/6/2014 and Accepted for Publication on 11/9/2014.